

المرأة الساحرة

تلخيص وتعليق

(تمهيد)

كانت الأميرة (سيرسية) مصدراً من مصادر الوحي والالهام لكثير من شعراء اليونان القدماء وكثيراً ما اقتنوا في اضطراء هذه الساحرة التي خلبت عقول عاشقها بجمالها الفاتن وحسنها الباهر ، وقد عزت اليها الخرافات اليونانية ونحلتها الاساطير الاغريقية كثيراً من المميزات ، فروت عنها روايات غريبة نسقها التواتر وأبدعها الاقتان وروعة الخيال حتى جعلها مضرباً من مضارب الامثال بما شهرتها به من قوة تأثيرها على العقول وشدة سلطانها في استهوائها النفوس ، حتى زعموا أنه لم يكن في عصرها من يستطيع الثبات أمام جمالها الفاتن ، مهما أوتى من قوة الارادة ومضاء العزيمة . فقد كان حب البطل السكى أو المتمرد الطاغى أن تسدد إلى قلبه نظرة واحدة من نظراتها الساحرة فتخور قواه وينقلب عزمه تردداً وقوته ضعفاً

وقد لا تقف معه عندهذا الحد بل تجعله حيواناً ذلولاً بعد أن تسلب منه قوة ارادته وكثيراً ما سحرت عاشقها والمقتولين بها خنازير بعد أن ردتهم أسرى شهواتهم وعبيد لذاتهم .

وقد كان جنود (عولس) ملك (ايتاك) من بين ضحاياها ، فقد سحرتهم خنازير — كما سحرت غيرهم — من قبل . أما (عولس) فتحدثنا عنه الاساطير أنه الشخص الوحيد الذي قاومها فنجح في مقاومته وعجزت عن أن تنال منه بفنون سحرها ومكرها ، أو تلحق به أذى ، وقد سجلت له الاساطير الاغريقية هذا الفوز الخالد

مقدمة القصة

ذلك ما تحدثنا به الخرافات في غاية الزمان وتبثنا بمحدثه في أقدم العصور . ولما كان التاريخ — كما يقولون يعيد نفسه — والايام لا تفتأ تكرر الحوادث المتماثلة

بين حين وآخر — والمثل العربي يقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! ولا أمر ما قال القائل :
 ما مر في دنياك أمر معجب إلا أرتك لما مضى تمثالا
 وقال في مكان آخر :

وهذه الليالي كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات
 حدث أن فتاة بارعة الحسن رائعة الجمال من بنات العصر الحالي ، طابق اسمها
 اسم (سيرسيه) ساحرة العصر الغابر ، ولم تكن لتقل عنها مقدرة واقتنائاً ،
 ولا كان سحرها أقل من سحر تلك أترأ في نفوس العاشقين
 كانت (سيرسيه) بطله قصتنا الحديثة آية من آيات الابداع وسراً من أسرار
 الجمال ودمية فريدة من دمي الحسن . يحار المتأمل في جمالها ، ويتملك عليه كل نفسه
 فينسى كل شيء ، غارقاً في تأمل محاسنها التي لا تنفد

في هوى مثلها يخف حلیم راجح حله ويفوى رشيد
 غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد
 وزهاها من فرعها ومن الحد ين ذاك السواد والتوريد
 فهي برد بخدها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
 ما لما تصطليد ومن وجنتها غير ترشاف ريقها تبريد
 مثل ذلك الرضاب أطفأ ذاك ال وجد؟ لولا الأباء والتصريد

كذلك كانت (سيرسيه) الحديثة مصدر سحر وفنة لحبيها وعشاقها الكثيرين
 الذين كانوا لا يترددون لحفته في تلبية كل رغباتها سابقين إلى تنفيذ أية اشارة من اشاراتها
 طلائعين فرحين . فلو أمرتهم أن يلقوا بنفوسهم في البحر لفعنوا أو يطرحوا بها في
 هاوية لما أحجموا ؛ ولقد كانت ابتسامة من (سيرسيه) لعاشق كافية لاستهوائه وانزعاج
 ثروته — بل روحه — لوشامت ، وكانت محاسنها متجددة ، وجمالها القائل يزداد
 سحره ويقوى سلطانه يوماً بعد يوم
 ليت شعري إذا أدام اليها كرة الطرف مبدى ومعيد

أهـى شىء لاتسأم العين منه أم لها فى كل ساعة تجديد

بل هى العين لا يزال متى استعرض على غرائبها ويفيد

على أنها كانت مع كل هذا تحافظ على نفسها محافظة نادرة ولا تسمح لواحد من محبيها أيا كانت منزلته أن ينال منها أرباباً ، أو يقضى منها لبانة . فقد كانت تضن على أعز عزيز فيهم بقبلة واحدة يطفىء بها أوراه أو ينقع بها غلته

وكان من بين أصدقائها ومحبيها الجراح (فان مرتيب) وهو طيب فاضل ومثال نادر من أمثلة النزاهة والجد ونموذج فذ من نماذج الاستقامة والشرف ، يقيم على مقربة من بيتها بحيث يستطيع بأدنى نظر أن يرى كل ما يحدث فى منزلها فى أكثر الايام من حفلات الاستقبال الشائقة ومغازلات العاشقين ورقصهم المزرى .

ولقد كان يحب فى تلك الفتاة الجميلة قدها المشرق وحسنها الساحر وحاسنها التى افنت فى اظهارها وأبدعت فى تنسيقها القوة الالهية ، ولكنه كان — إلى هذا — يكره منها ذلك الاسفاف الشائن ويمقت فيها ذلك الاستهتار المزى الذى تنحط اليه ، وكثيراً ما أمضه وأقلق باله أنها لا تصون جمالها عن الدنس وانها تسيء إلى حسننها فلا تنزهه عن تلك الأرجاس التى انغمست فيها ، فقد كان يرى أن مثل جمالها الرائع جدير أن يتخذ وسيلة لتهديب النفوس والتخليق بها فى أجواء الطهر والعفة ، لا أن يتخذ وسيلة لاحتط الدرك وأدنا الغايات !

كان إذن يقدس جمالها بمقدار ما يستخط على حقارة نفسها وتدليها فى هذه الهوة السحيقة . كان يرى فيها صورة ملاك ونفس شيطان ! كان يرى أمامه جمالاً علوياً ونفساً سفلية مغمورة فى القذارات والأرجاس فيتحسر ويحزن ويتألم

كان الدكتور جراحاً منصرفاً إلى عمله معنيا بشئون مرضاه ، وكان إلى ذلك يزور (سيرية) أحياناً وربما تأخر عن زيارتها بسبب ما تتطلبه مهنته من الاهتمام بمرضاه والانصراف إلى شئونهم ، وكانت (سيرية) تشعر بانعطاف اليه ، وتحب باحترام نادر من بين عشاقها الكثيرين . فلتب قلبهم حسداً له وبغيرة منه ، وكثيراً ما رأوا فيه منافساً خطراً ، فنفسوا عليه ما له من الخطوة ورمقه بأعين شزر . ولم لا وهى تميل

إليه دون أن يتقرب إليها وتفضله على خلانها وفيهم من جن بعشقتها جنونا ، وفيهم من غمرها بهداياه الثمينة ، ومنهم من يشتري لها أنفوس الحلى وينتقى لها أغلى الجواهر رغبة في بلوغ رضاها . ولكن أحدا منهم - رغم هذه الجهود - لم يبلغ شأو هذا الطبيب ولا استطاع اللحاق به في هذا المضمار ، على أن (سيرسيه) نفسها لم تكن تخلو من نقمة على هذا الطبيب ، فقد كان يؤلمها أيضا ما تراه فيه من قلة الاكتراث بها وعدم الاهتمام بأمرها مع ما تبذله من الجهد في سبيل التأثير عليه ، وكانت لا تنسى تسبويه بجمالها غير تاركة فرصة تسنح دون أن تنتهزها لعلمها تصل إلى قلبه وتحرك بواعث الحب الكامنة في نفسه

وفي ذات ليلة جمعتما المائدة في إحدى حفلاتها - وكان كرسيها إلى جانب كرسيه - فأمسكت بطرف رغيغ ثم سألته أن يجذبها من طرفه الآخر فكان من قسمته الجزء الأكبر منه ، فالتفتت إليه باسمته وقالت : « أرى أن الجانب الأكبر من الرغيغ وقع في قسمتك ومعنى هذا في لغة العرافة والتنجيم أنك ستحتمل بسببي هماً كثيراً ، فلم يجبها الطبيب بأكثر من ابتسامته الساخر الهازي الذي لا يعتقداً مثال هذه الخرافات

انتهى العشاء وقامت ترقص مع خلانها الذين تسابقوا متنافسين في اظهار حبهم لها بما قدموه بين يديها من الهدايا الفاخرة والحلى الثمينة . ولقد كادوا يصطدمون معا في ألف عراك ، كلما نظرت إلى هذا أغضبت ذاك ، وكلها ابتسمت لأحد عشاقها التهب قلب منافسه غيظا واشتعل فؤاده حقدا على ما ناله منافسه من فوز ، وهي لا تفتأ تلتف من حقدهم بمهارتها ورشاقة حركاتها ملائمة بين أهوائهم المصطدمة بقوة ودهاء . ولطف حيلة ، كما يلائم الملاح الماهر بين قوى الريح المتنافرة ويتخذ منها جميعا وسيلة إلى تسير مركبه بين الزعازع والعواصف الهوجاء . ثم لم تلبث أن التفتت اليهم باسمته وقالت : « من أحنى منكم فليتبني » ولم تكدهم هذه الجملة حتى اندفعت إلى بركة من الماء كانت على مقربة منها فتبعها المتنافسون مندفعين إلى البركة جميعا - إلا الطبيب - غير آبهين للابسه ولا ملوئين على شيء في سبيل ارضائهم والرضوخ لآشارتها ، ووصل إليها عاشقان في وقت واحد وحاولا تقييلها معا فلنكر أحدهما الآخر بقوة

فألقاه في الماء، وكرت الفتاة منفلتة بمثل سرعة البرق فافلتت من عشاقها هاربة، وحانت منها الفتاة فرأت الطبيب واقفاً إلى جانب الباب منتحياً وعليه سيماء الجدوأمارات الوقار خفته بإشارة خفيفة من عينها وهو واقف وقفة التأمل الهازي ثم سأله لم لا يشارك عاشقها في لهوهم ومرحهم، فأجابها ساخراً: إنه أرفع من أن يشركهم في مثل هذه الحماقات وأسمى من أن يقترب معهم هذه الدنيات، مؤكداً لها أنه يحقر (سيرسيه) ويمقت ألعابها أشد المقت—وانما أراد بذلك أن يشير إلى (سيرسيه) الساحرة اليونانية من طرف خفي، فلم تدع (سيرسيه) بطلاة قصتنا الحديثة هذه الفرصة تمر دون أن تنفع بها فاجابته قائلة: « ولكن حذار أن تنسى أن سطوة (سيرسيه) قد حولت رفقاء «عولس» خنازير» فيجيبها ساخناً بأنفه: «يد أنها عجزت أخيراً عن «عولس» نفسه لما أظهره من الخزامة والحكمة النادرة»

وهنا يفترقان

وتجلس (سيرسيه) في مخدعها مفكرة مهمومة مستعيدة خلاصة ما مر بها من الحوار مع الطبيب الجراح، ثم يعين لها أن تتجمل بملابس بسيطة تعتقد أنها تعجبه ليله إلى البعد عن التكلف، ولكنها تبدأ بمحادثته في المسرة (التليفون) بعد أن تطلب خادمها النمرة المطلوبة، ولا تكاد تبدأ الكلام مع الطبيب حتى يشتد بينهما اللجاج، وتلقى بالسماعة مغضبة حائرة. أما حوارهما فقد كان مقتضباً جافاً غاية في الإيجاز: — أليس من عبادة أهل طبقتكم الرفيعة أن يحبوا الحاضرين قبل مغادرتهم؟ ثم لماذا هربت يلسيدي الطبيب بمثل تلك السرعة؟ لعلك خفت الانهزام؟

— ربما كان ذلك

— ولكن قل لي لم هذا التجانف والكبر؟

— لأنني لا أستطيع فهم أمثالك من النساء!

هنا ألقى بالسماعة مغضبة وظل قلبها يخفق خفقاناً شديداً متداركاً ونبض نبضات قوية، وظلت تردد قول الطبيب متأثرة قائلة «أمثالي من النساء» «لا يفهم أمثالي من النساء» «يا الله وهل أنا بدع في هذا العالم!»
وإنها لتستسلم لهذه الأفكار العابسة إذ تأخذ نظرها مذكرة حياتها اليومية التي

أهملت تدوين الحوادث فيها منذ من بعيد ، تناولها يد مثاقلة ، ولا يكاد يقع نظرها عليها حتى تستعيد ذكرى حياتها الأولى ، فتقرأ فيها قصيدة مخزنة تدعو إلى العبرة والعظة ، ترى نفسها وهى فتاة واقفة أمام الدير معجبة برؤية الراهبات فرحة بمنظرهن البسيط — وهن سائرات إلى حديقة الدير — فلا ترى أمنية وقتذاك أشهى ولا طلبة أعذب من أن يمن الله عليها فتصبح فى عدادهن وتندمج فى سلكهن ، ولا تلبث أن تلتفت إليها إحدى الراهبات مبتسمة ابتسامة المشجع لها على تنفيذ ما يساور رأسها من الآمانى والأحلام ، ثم تتبع أخواتها إلى الدير ، وإن فئاتنا لغارقة فى تصوراتها أمام باب الدير إذ لحها شقى من أشقياء الانس — فى بدء العقد الثالث أو نهاية العقد الثانى من سنه — يحمل على رأسه سلة خبز ، بهر لبه جمال ساقيا العارين فوق يتأمل محاسنها مليا ثم تلفت يمنة ويسرة فلم ير فى الطريق أحدا . فشجعه ذلك على الاسترسال فى فكرته الخبيثة التى سولتها له نفسه ، فتقدم نحوها بخطوات ثابتة حتى أدناها ثم أمسك بذراعها يحاول تقبيلها وهو يقول لها ، ليس هذا الدير لمثل جمالك فهلمى أيتها الملاك قبلى ، فدفعته عنها بعنف وشدة — بسبب الذعر الذى تملكها — فهوت سلة الخبز من فوق رأسه إلى الأرض وولت الفتاة هاربة ، فأسرع إلى اللحاق بها ، ثم أمسك يديها بقوة شديدة وجذب الفتاة نحوه فأنجذبت مرغمة . ثم أمسك بصدغيها بين يديه واغتصب منها قبله — لمع لها جبينه وقطب لها جبين الفتاة — وعاد أدراجه وهو يترنخ من القوز ، وعادت الفتاة متخاذلة مثاقلة إلى بيتها ، فارتمت فى أحضان أمها حزينة كئيبة تأس موضع العار من شفتيها . كما تهاجم أن تزيل ما علق بفيها من آثار القبلة !

وتظل تقلب أوراق مذكراتها فترى فى ثنايا صفحاتها ضعفها الشديد عن تحقيق آمانيتها وتقرأ ما سجلته على نفسها من اخفاقتها التام فى الاندماج فى سلك الراهبات . وتقرأ صحيفة أخرى فتشتمل نفسها وهى تعمل فى حانوت قصاب وإنها لتحسب دخول المحل إذ حانت من صاحب التفاتة — وهو منهمك فى عمله والعرق يتصبب على جبينه ويتساقط من كل أنحاء وجهه — فرأى جمال الكاتبة فوق يتأمل بحسنها برهة ، ثم

عن له مثل ما عن لصبي الفرات من قبل ، فذهب ناحيتها حتى داناها ثم أمسك بذراعها اليسرى باحدى يديه — بينما كانت مستغرقة في عملها — وقدم لها دجاجة بيده الأخرى ، وحاول أن يقبلها اغتصابا فدفعته عنها مغضبة و ثم تملكه الغضب فكشّر لها عن أنيابه وانقلبت سحنة وجهه ودمدم غيظا وحنقا ثم تركها قائلاً : « لك أن تغادري العمل إذا كنت لا أروقك » فخرجت من حانوته تتعثر في أذيال الحية — وقد ظهرت آثار أصابع القصاب المتسخة على ذراعها اليسرى واضحة جليلة — و ثم تلقى مذكراتها من يدها آسفة على ما جرته عليها الحياة من ويلات لم يكن لها قبل بدفعها ، ثم لاتبث أن يتسرب العزاء إلى نفسها فتقول — إن الحياة خدعة وأهلوها أشرار والمرأة بينهم ضحية ولست جديرة أن أناضل الناس بغير سلاحهم أو أعاملهم بغير معاملتهم ! »

*

* *

ونرى — في منظر آخر — الطبيب الجراح بين مرضاه في حديقة القصر الذي اتخذته مصيفاله وهو يواسى هذا ويطمئن ذاك ويشرك صغارهم في ألعابهم ليرفه عنهم كثيرا من آلامهم ، وربما زلت قدمه فعثر أو اصطدم ببعض الصبية فبذل كل ما في وسعه لترضيه وإزالة ما لحقه بسببه من الألم ، ثم لا يدعه حتى يرى ثغره باسماء ووجهه متهللا ، وإنه لكذلك إذ تدخل (سيرسيه) متكررة باسم غير اسمها فتنبئه الخادم أن سيدة مريضة بالباب تريد لقاءه فيأمر بإدخالها حجرة الاستراحة ، ولا يكاد يدخل حتى يجد (سيرسيه) أمامه فيغضب أشد الغضب إذ يتبينها ويعرف أنها هي ، ويسألها مستفسرا : « ماذا دعاك أيتها السيدة إلى الدخول عندى متكررة ؟ ألم يكن الأجدر بك أن تكونى صريحة وأن لا تلجى إلى مثل هذه المواربة المقوطة ؟ فتجيبه : « ولكننى أراك تهرب منى دائما ، وإنى لعلى يقين من أنك كنت ترفض مقابلتى بمتعاً كل الامتناع عن لقائى لو صرحت للخادم باسمى الحقيقى ، ومع ذلك فأنام مريضة أيها الطبيب ، نعم مريضة جديرة بعنايتك لعلى أشفى من علتى » فيجيبها : « لا بل أنت تمارضين » وهما تلوح منها التفاته فترى على طاولة الطبيب إطارا فيه صورة فتاة جميلة فليهب قلبها غيرة وحقدًا ، وتسأله : « أهذه هي معشوقك أيها السيد » فيقول : « نعم هي خطيبتى وقد كنا على

وشك الاقتران يوم اختطفها الموت منى، فلا تسمع الشطر الأول من جوابه حتى تكاد تصعق لو لم يتدأ كما الله برحمته ويسرى عن نفسها تمة الجواب فيزول من على صدرها كابوس ثقيل، إذ تعلم أن منافستها قد انتقلت إلى العالم الثاني.

ويبدأ الطيب بفحصها ولا يكاد يلبس يدها وصدرها حتى تشعر (سيرسيه) كأنها كهرباء الحب قد ألحبت جسمها إلهاباً فتنبه تنهد العاشقة المولعة وتلبس هاتين الناحيتين من جسم اللتين لمسهما الطيب بيده فيلتفت إليها مغضباً ويقول: «تقي أيتها المرأة المستهتر أن هذه الحياة البليدة ستودى بك بعد قليل من الزمن» فإذا رأت ضراعتها له غير مجدية وألفت آملها غير محققة عاودها الآباء والشعم فأجابته شائعة بأنها: «ألا تعرف بماذا أجابت (سيرسيه) حين رفض حبها واحتقر عشقها، لقد قالت له: وداعا».

تعود إدراجها صاحبة متأججة القلب حقداً وغيظاً عاقدة العزم على نسيانه — كلفها ذلك ما كلفها — وشم نراها في حفلتها الراقصة التي أعدتها في منزلها ودعت إليها أصدقاءها وعاشقها واقتت في استحضار جالبات السرور إليها، فأصبحت ردهة البيت حانة نادرة المثال وبدأت تعزف الموسيقى وتدور الأقداح وتترنخ الأعطاف، ويستمر الرقص فإذا ثمل أحد عاشقها حاول الدنو منها فأقصته عنها انقضاء — بعد أن لكزته بيده الكزة حطمت بهائل آماله — ثم تلعب الخمرة بالرؤوس ويحمي وطيس الرقص فتلهب النفوس حتى يخرج الحاضرون عن أطوارهم وينسوا أدنى واجبات الحشمة وأقل مستلزمات الوقار فتركب «سيرسيه» واحداً من عشاقها — بعد أن وضع على وجهه وجه وحش أقرب إلى أن يكون وجه خنزير — ويظنون كذلك منهمكين في رقصهم غارقين في لهوهم، حتى إذا لفتت هذه الجليلة الطيب القريب من بيتها فتح نافذة طنفه، فأطل منها على هذا المنظر الغريب فرأى «سيرسيه» المستهتر، فاذا لاحت منها التفاتة إليه زادت انهماكا وأسرفت إسرافاً لا حد له في لهوهما. وظلت ترقص رقصاً عتيقاً متداركاً وقد وضعت على رأسها قبعة من قبعات الرجال، فلم يتقابل الطيب هذه الحركات الطائشة بأكثر من إغلاق باب الطنف ليضع حداً لرؤية هذه المساخر.

هنا تشتعل نار الآثام في نفسها وتصهر جسمها من اليأس والفشل؛ فتتم من الرقص ويمعن معها عاشقها في الرقص فتلاشي ذواتهم في غمر اللهب الجارف؛ وتوخر توأها فتزجي على شاب

وضىء الوجه من عشاقها المدللين فيحاول تقبيلها فتمنعه ، فإذا شفه الوجد وشكا إليها حبه وهيامه هزئت به ساخرة ، فإذا قال لها : « إني أعبدك وأراك أملى الخلو في هذه الحياة فكوني لي » أجابته « مه فليس يروقني هذا الهراء ولا يعجبني منك هذا الفصل البارد الذي تقوم تمثيله بين يدي الآن » فيصعق قلب العاشق ويهم بالانتحار فتلوح من سيرسيه التفاتة فترى عشاقها يلعبون القمار

وتسمع أحدهم يقول : « أراهن على ألف ريال » فتسرع إلى مشاركتهم في المقامرة وتطلب إلى العم جون أن يعطيها حيلة للمقامرة بها ، فيقول لها المحامي العاشق : « بل أنا أثق بكلامه فلا حاجة إلى كتابة الخوالة »

تبدأ في المقامرة فتكسب في الدور الأول ثم يحدوها الطمع إلى الاستمرار فتخسر ما كسبته . فتتحمس لاستعاضة الخسارة التي لحقتها فتضاعف همتها وتشتد خسارتها فيزيدها ذلك تحمساً فتقامر على خمسين ألف ريال فتخسرهما صفقة واحدة فيجبن جنونها فتضع أمامها كل حلالها مقامرة عليها فأبى نخس نجمها إلا أن تخسرهما جميعاً ، فتقول للمحامي قوله اليائس الذي أخرجه اليأس عن رشاده فأفساه ما يقول : « أقامر على منزلي فإذا نجحت استعرت منك كل ما فقدته وإن أخفقت أضفت منزلي إلى ما خسرت » ويأبى سوء الحظ إلا ملازمته إلى النهاية فتخسر في المقامرة بيتها بعد أن خسرت قبله كل شيء .

طاحت أحلام (سيرسيه) في اثروة كما طاحت آمالها في الحب ، لقد كانت تبحث عن وسيلة لنسيان ما لحقها من الخسارة والاختفاق في الحب وتستعير بها عن يأسها الشنيع في استمالة حبيبها ، فأبى لها الشقاء إلا أن تخسر إلى ما خسرت كل ما كانت تملك — من مال وحن وعقار — بيد أنها هزئت في هذه المرة بضربات الدهر القاسية بعد أن توالى عليها ، ووصلت إلى الحال التي عناها المتنبي بقوله

تكاثر النصال على حتى فوادي في غشاء من نبال
فصرت — إذا أصابني سهام — تكسرت النصال على النصال

فلجأت إلى الصبر معتمضة برزاة اليأس فقد كل شيء فلم يعد يبكي على شيء . واستبدلت قضاؤها — مخفية ما أصابها من الكمد — بآبائسة انفرجت عنها شفتاها ولكنها

تتم عن بائس قاتل، ثم التفت إلى الراج قائلة: «لقد أصبحت الآن مالك ثروتي كلها ولم يعد لي فيها شيء، فهل تفضل بدعوتنا إلى العشاء في هذه الليلة احتفاء بما نلته من فوز وابتهاجاً بما أحرزته من نجاح» فأجابها المحامي ملياً طلبها الذي لم يكن يرى أشهى إلى نفسه وأعذب إلى قلبه من تلبيةه، ثم نصبت المائدة واصطفت الكؤوس وبدأ المحامي يقدم لها الكأس الأولى مبتسماً لها ابتسامة تجمع معاني شتى أهمها الفوز على عشيقته من طريق الثروة بعد أن هزمته أمامها في طريق الحب. وفي ابتسامته معنى من معاني الشعور بالغبطة والرضى بما أوصله إليه جده السعيد فأصبح أقدر من ذي قبل على تقديم الهدايا الفاخرة إليها وهي في هذه الظروف القاسية، بل لقد صار في مكنته أن يكشف عنها ويريل ما بها من الثمنك المالى بعد أن كانت في بحبوحة الرخاء:

تناولت «سيرسيه» الكأس التي قدمها إليها، وردت على ابتسامته بابتسامة الكمد المتكلفة فأسرع يسارها بقوله: «ثقي أن ثروتك لم تضع بعد، وأن في تناول بك أن تستردى إذا شئت بأيسر الأثمان؛ بمن زهيد جداً لا يكلفك شيئاً يذكر» ولكنها لا تجيبه بشيء، بل ترفع الكأس إلى شفيتها فتحسى منها قليلاً ثم تضغط على زجاجها بعنف فتحطم الكأس في يمينها تحطياً وتدخل شظاياها في راحة يدها فيسيل منها الدم غزيراً وهنا يتجمع حولها العشاق واجمين مستفسرين عن جلية الخطب؛ ويسرع العلم (جون) باستدعاء الطبيب الجراح فيحضر على عجل فإذا رأى الطبيب جرحها سألها: «أليس في البيت أحد من النساء؟» فجيبه: «كلا ليس في البيت إلا خنازير (عرليس) فيقول لها إنما وجهت إليك هذا السؤال لأنني ساضطر إلى إبلاكم فتحملى آلام العلاج بصبر، وجلد فجيبه رابطة الجأش غير مبالية بشيء: «هون عليك يادكتور ولا تقولن ذلك فلقد طالما تألمت وما كانت حياتي الأسلسلة مفرغة الحلقات من الآلام والاحزان» فإذا شرع في علاجها قدم لها أحد عشاقها سيجاراً تناولته منه باسمه محبة، فيزيد ذلك في امتعاض الطبيب وإذا انتهى من العلاج ضمد جراحها ثم ربطها برباط طويل إلى عنقها، ولا يكاد ينتهي من عمله حتى يجد على أسارير وجهها ألف معنى من معاني المغازلة ويتبين ما ترمى إليه تلك النظرات الفاتنة فينظر إليها عابساً وهو يقول: «يحدرك أن تقلعي عن هذه المساخرة وأن تضعي حداً حاسماً لسيرك المعوج» فلا يكون لها من جواب على هذا

القول إلا أن تسرع إلى احتساء كأس مترعة من الخمر وهي تهيب بأصحابها - : اسمعوا يا سادة ، ها إنى أشرب تلك للكأس تجب نصيحة طبيبي الثينة ، ويجذبها إلى ناحيته أحد عشاقها فتبدأ معه الرقص كأنما تريد بذلك أن تهتاج نفس الطبيب أو تحرك فيها شيئاً من لواعج الحب أو تثير منه مكمناً من مكامن الغيرة ، ويحاول عاشقها تقييلها فلا تمنع في ذلك ممانعة جدية لتزيد بذلك إهاجة الطبيب ، على أنها تهيج بذلك عاشقاً آخر من عشاق المدلهين ، فيتصدى لصاحبه ويريد المحامى أن يطرد الجميع من البيت الذى أصبح في حوزته بحكم القانون ، وفي هذه الأثناء تنطلق رصاصة طائشة من يد عاشق آخر فينسبون المهرج والمرج ويتملك الذعر نفس سيرسيه فتأخذها رعدة ، ويلتفت الطبيب إلى الحاضرين فرعاً ناقماً منهم هذه الاعمال الوحشية التى تبرأ منها الإنسانية . نادياً انحطاط الأخلاق وار تكاس الآداب . ولا يكاد يخرج من هذه الحفلة السافلة . حتى يلتقى بها في الحديقة . فينظر إليها محترقاً ثم يسألهام قرعاً وهو يغذ السير إلى داره - : « ألا تشعرين بمسئولتك الجسيمة أراء ما تقترفينه من هذه الشنع ؟ » ولا ينتظر منها جواباً . بل يواصل سيره مسرعاً ، يجلس الطبيب في غرفته مفكراً فيما مر به من الحوادث العجيبة في تلك الليلة النكراء : وانه ليحبل فكره في ذلك غارقاً في تأمله . إذ يفتح باب غرفته فجأة وتدخل منه سيرسيه . ولا يكاد يرفع بصره إليها حتى تبندره قائلة : « ماذا تنقم منى ياسيدى الطبيب ؟ » تنق أنك واهم في ظنونك ؟ فأنى لست . وايم الحق . ملومة على ما أتته ، بل ليست لى يد في كل ما حدث بسببى . لقد كوتتنى الظروف القاسية تكويناً لم يكن لى فيه أى خيار ، وألقت به في هذا الخضم المائج بلا عتاد ، فلم أربدا من السباحة في تياره حتى لا يغرقنى إلى قراره . ولقد رأيت الناس لا يحبون إلا هذا النوع السمج من الحياة الفاسدة فلم أحجم عن مشاركتهم فيما يحبون ! » فيجيبها الطبيب قائلاً : « بل أنت واهمة في تبرير عملك مخطئة أشنع الخطأ في كل ما تلتمسينه لنفسك من الأعذار التى تحاولين بها تبرير ما تقترفين من إثم وفي إقناع نفسك بأنك غير مسئولة عما تجنيه يداك من الجرائم الشنعاء ! » لا فلتعلنى أيتها السيدة أن أمثالك من النساء قوى هائلة في هذا الوجود مدمرات كل ما يحيط بهن بلا رحمة ولا شفقة ، وها أنت ذى لا تفتنين دأبة على إيقاظ أسفل الغرائز الإنسانية ، وأحقر النزعات البشرية في نفوس خلطائك . ولو أن هذه القوى الهائلة قد وجهت إلى الخير لآتت بأحمد النتائج الباهرة

فتحيه سيرسيه ضارعة

« آه ياسيدى الطيب لشد ما أخطأت فهمى وأسرفت فى إساءة الظن بي — وماذا يعينك، إن كنت قد أصبت أو أخطأت؟ وليس هذا بضائك. يا لله! ألم تظن بعد إلى ما يحبه لك، قلبي ماذا — آه من الحب، نعم من الحب، ثقب أنتى أحبك، أحبك، أحبك! »

فإذا سمع منها الطيب هذه المناجاة لم يعجبها و كأنما كانت نجواها إلى سواه، فأشعل سيجارته والتفت إليها التفاته الهادى، وأجابها ساخراً — وهو يتباطأ فى كلامه: « أنت تحيننى؟ هذا هراء، هذا مالا أعتقده، فإن مثلك لا يعرف الحب، فلا تدعه سريسه يتبادى فى هذه النغمة المؤلمة من القول، بل تسرع فجأة إلى يده الممدودة إلى جانبه فتختطفها اختطافاً وتندبها إلى فيها محتلسة منها قبلة حارة، ثم تفر راجعة أدراجها بمثل سرعة البرق، فيجرى وراءها يحاول اللحاق بها بلا جدوى، حتى إذا ينس من إدراكها عاد إلى غرفته وقد بدأ يساوره الفكر والقلق على مصيرها وأحس أول نيران الحب تضطرم فى قلبه اضطراباً! »

تعود « سيرسيه » إلى بيتها منهوكة القوى مشغولة الفكر، فيقابلهما عشيقها المحامى باسمًا مظهرًا لها استعدادها التام للتنازل عن كل شىء — إذا شاءت — فلا تجابه ولا تلتفت إلى ما يقول فيمسك يدها محاولاً تقييلها أو ضمها إلى صدره فتجذبها عابسة وتدفعه عنها مغضبة فتشتعل فى قلبه نار الغيرة والحقد ويسأها: ما معنى هذا التقطيب وهو صاحب الثروة ومالك البيت والمتصرف فى كل ما تملك؟ فلا تجيب بشىء، فإذا رآها لا تحير جواباً وأدرك من أساريرها أنها منهمكة غارقة فى بحار أفكارها السوداء بادرها بقوله: لعلك فى شغل شاغل عني بحب ذلك الطيب... فتقاطعه صارخة: « صه أيها الخبيث! فأنت غير جدير أن تنطق حتى باسمه: آه لبس ما جنيت من محبة أمثالك من خطاء السوء ورفقاء الشر الذين أوصلتني مصادقتهم إلى هذه العاقبة السوأى، وأسلفتني صحتهم إلى فقدان كل أمل فى الحياة الفاضلة » وهكذا يسدل الستار على هذا المنظر الرائع:

ونعود إلى الطيب فنراه جالساً جلسة المضطجع على إحدى أرائكه غارقاً فى تأملاته. مر سلافكره فى جمال سيرسه والتأمل من حسناتها، وقد دفعه الفكر إلى تمثيل كثير من الأحلام والأمانى اللذيذة عنها فقد بدأ يتمثلها أمامه الآن ملكاً كريماً. لا بشراً سويًا، واستعاد فى ذاكرته تلك القبلية.

المختلصة التي اختطفتها من يده اختطافاً فأحس كأن نار الحب يسرى ضرامها من مكان تلك القبلة إلى كل ناحية من أنحاء جسمه ، وطاف بذهنه كل مامر أمامه من حب سيرسيه وشدة تعلقها به ووجدتها الذي أثبتت الحوادث صدقه ، وطفق يحلل كل مآلته من الأعمال فيزيده ذلك بها شغفاً وهياماً . وتنجلي له البواعث الحقيقة التي دفعت بها إلى كل مافعله ويتكشف له أخلاصها وحسن طواياها ونبل مقاصدها .

لقد أدرك أخيراً أن سيرسيه محبة صادقة في حبها . ولو أنها عن يما ذقه الحب لما بهت له ولا شغلت بالها به إلى مثل هذا الحد ولا انصرفت إلى عشاقها الكثيرين الذين لا يترددون لحظة واحدة في تلبية أشارتها وانفاذ رغباتها ، وذكر أنه لم يقدم لها هدية ولا هو غنى فيطيبيها غناه وتستميلها ثروته . وهكذا تضافر كل شيء وتكافت كل ظواهر الأمور وبواطنها على تفسير حبها أياه بمعناه الصحيح الذي كان جديراً أن يفهمه من قبل على حقيقته ، ولقد ظهرت له سيرسيه في أحلامه ملكاً باطناً من السماء مرة ثم صاعداً اليها مرة أخرى ، وبما رأى هذا الملك السماوي جاثماً بين يديه أو طائر أفي أجواز الفضاء أو مخلوقاً معه في أجواء السعادة والهناء . وربما خيل إليه أن حبلاً من جبال الأمل قد تدلى به من السماء وأنه متعلق به وحيثه سيرسيه ، وقد بدأ يرتفع بهما وهما صاعدان حتى بلغا ذروة الرجاء وأشرفا على عالم بهيج تغنى فيه الطيور الجميلة . وتسطع في سماواته شمس السعادة وتنمو فيه أزهار الحب ناضرة فرحة وربما أحس كأنما يدها البيضاء الناعمة تلمس كتفه برفق . فأفاق من سنته متهياً لعناقه . فلم ير أمامه أحداً . فالتفت إلى تأملاته مستأنفاً أحلامه السارة من جديد ، ولم تكن سيرسيه تبدو له في ذلك الحين إلا متحلية بأجمل ما يتجلى به الحبيب لحبه من حلال الحسن الضافية وحلل الطهر والعفة والأخلاص ، حتى لقد هم مراراً أن يذهب إلى بيتها جرياً على قدميه ليظفر بلحم وجناتها وينعم بقربه منها . متملياً بحاسنها المتجددة الباهرة ، على أنه لم يلبث أن تملكته هذه الفكرة بعد قليل وامتلات بها نفسه فذهب إلى بيت حبيبته سيرسيه :

ونعود الآن إلى منزل سيرسيه فنرى العم جون واقفاً يسأل الخادم السوداء عن سيدتها سيرسيه فتجيبه محزونة : — لقد غادرت المنزل منذ هنية تاركة لك هذه الرسالة . فيسرع العم جون إلى فضاها وقراءتها ، ولا يكاد يأتي على آخرها حتى يتملكه الأسى

وينهه الوجديذا يقرأ: « مع كل شيء وسدد ديونى ثم خذ ما تبقى لك أما أنا فلا يعينك
أمرى ولا يقلق بالك مصيرى ولتثق أنك لن تعثر على مكانى إذا بحثت عنه . فلا
تطلب المحال ولا تعال نفسك بباطل الآمال والسلام عليك من الشاكرة لك على
صنيعك المقدره كل بذلته لها من معروف وقدمته من جميل » ظل العم (جون) برهة
حائراً ، يعيد تلاوة الرسالة مثنى وثلاث ورباع وإنه لكذلك إذ حضر الطبيب فإذا
رأى العم (جون) حياه مستفسراً عن سيره فلم يجبه بأكثر من إعطائه رسالتها التي
تركها مع الخادم منذهنية ، وثم يحس الطبيب كان شراراً تطاير بين جنبيه ، واسودت
الدنيا في عينه وقد أدرك أن (سيرسيه) قد فرت فرار اليأس بعد أن سدأ مالمها كل أبواب
الرجاء ، فألقى على نفسه باللأثمه وخجل بما أتاه من التصلب والعناد حين كان جديراً
أن يسلك معها سبيل الرفق واللين والكياسة ، وبدأ يتمثل ما يستقبله من الآلام
والاحزان المضنية ويرى في الأيام القابلة ظلمات كثيفة متراكمة لا تسطع فيها أضواء
الحب ولا تثيرها شمس وكأنما أيقن أن نجم سعادته قد أفل فعاد أدراجة والهم بكاد يصمى
فؤاده ، وطفق والعم جون يبحثان عن (سيرسيه) في كل مكان يظنانها تغشاه زمنا
طويلاً . دون أن يرجعا بطائل ، حتى كاد يخامرهما اليأس : أما سيرسيه فقد علمت أن
الطبيب الذى تقدسه متفانية في حبه قد أخطأ فهمها وأساء الظن بها وعرفت معرفة
اليقين أنه لم يحكم عليها إلا بظاهرها دون أن يعنى نفسه باستكناه حقيقة حالها وطهاره
نفسها ، علمت (سيرسيه) أن الطبيب الذى ناطت به كل أمل في إسعادها يحتقرها
احتقاراً ، وأى شيء أدعى للحسرة وأجلب للآلم من رؤية من لا يعبأ الإنسان بأحد
في العالم إلا به ولا يهمه رضى سواه أو سخطه ، أى شيء أنكى من سخط هذا الحبيب
الذى لا يهم الإنسان أحد سواه في كل هذه الأرض الفسيحة

فلتلك تصفو والحياة مريرة ولتلك ترضى به والأناام غضاب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

(٥٥)

ولكن ماذا تعمل سيرسيه وقد رأت أن كل من يستوى عندها حبيبهم وسخطهم يهيمون بها هياماً ولا
يترددون في تلبية أية إشارة من اشاراتها . في حين أن معبودها الذى ينير لها حبه طريق
الحياة لا يفكر فيها ولا يهمه من أمرها شيء . لم تجد سيرسيه أمامها وسيلة تلجأ إليها

في الحياة — بعد أن كرهتها وكرهت كل ما فيها . إلا الرجوع إلى أمنيته الأولى التي طالما عجزت عن تحقيقها فذهبت ميممة ملجأ حداثتها ومطمح أحلامها من قبل وهو الدير . فلما بلغت مرت بذكرها طائفة من الذكريات المختلفة ولم تكد تظاً قدمهاها بابه حتى أيقنت أنها تستقبل عهد الدعة والطمأنينة ومرة الأيام تترى وهي ترنل صلواتها مبتلة إلى الله مازجة دعاءها وصلواتها بذكر حبيبها الذي يئست منه إلى الأبد ومرأماها مشهد الرهبات في ساعة متأخرة من الليل ذاهبات إلى الصلاة . فذكرها ذلك بالمشهد السابق الذي رآته وهي طفلة وتعاقت الأيام وهي منصرفة إلى العبادة مازجة الصلاة بالحب ، تجلس حولها فتيات صغيرات تعلمن في حديقة الدير باسمات حولها فرحات بما يتلقينه منها مؤنسات بأحاديثها الجميلة

وفي ذات يوم لمحت إحدى تلميذاتها تعدو نحوها مسرعة قائلة هاهي الآسة . (مارى) مقبلة فأسرفت سيرسية إلى لقائها ولكنها ، ولكنها لم تكد تجتاز باب الحديقة وتخرج من الدير إلى عرض الشارع حتى دهمتها سيارة مسرعة في منتصفه فكسرت ساقها وغابت سيرسية عن الوجود دخلوها وهي فاقدة الرشد إلى مستشفى الدير حيث بدؤا يعالجونها .

نعو د إلى الطبيب العاشق فتراه يعدان بحث فأضناه البحث وفش عن سيرسية في حيناً عن له أن تكون فأعياء الأمر واتابه اليأس من العثور عليها وأيقن أن كل مجهود بذله في هذا الصدد ضائع وما له الفشل والخيبة ، كف عن البحث مستشعراً اليأس من لقائها قانعا بالتمتع بها في عالم الخيال والأحلام بعد أن عجز عن التمتع بها في عالم اليقظة والحقيقة ولكن الدهر أبو العجب وأضيق الأمر إن فكرت — أوسع ، وكثيراً ما ينبلج صبح الأمل بعد أن يحللك ليل اليأس ويشد ظلامه

وقد يجمع الله الشيتين بعد ما . يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

فقد خرج الطبيب ذات يوم وكلبه يرافقه فلما بلغ مكانا مزدانا بالأزهار والحضرة جلس ولم يكذبستقر في الجلوس حتى بدأ يداعب كلبه ولامر ما ألقى إليه عصاه على أبعد مسافة استطاعها فأسرع الكلب يعدو في أثرها باحثاً ولكنه عاد بعد قليل وفي فيه شيء غيرها ، فلما داناهت بين الطبيب أنها مذكرات ، ولشد داغمرته الدهشة

حين رأى اسم سيرسية مكتوبا عليها فأقبل على مطالعتها بلهفة المشوق وهو يكاد يهتمها التهاما وزادته مذكراتها اقتناعا بطهارة نفسها ونبل مقاصدها ، على أنه لم يطل به البحث وهو يقلب صفحاتها فقد رأى في ثناياها عزمها على الذهاب إلى الدير المقدس (أورليان) وما كاد يقع بصره على هذه الجملة حتى طفح وجهه بشرا وامتلاّت أرجاء نفسه بهذا الاكتشاف الباهر غبطة وأنسا ، حتى خيل إليه أن الكون بأسره باسم له وأن ليس في هذا الوجود الاطلاقة وسرور شامل ولا حله بحر السعادة المنبلج تبدد أضواءه ظلام اليأس وتقشع سحب الخيبة التي كانت غائمة في نفسه فكر ، راجعا إلى العم (جون) ليخبره بهذا الاكتشاف الرائع الذي هداه اليه حسن طالع

ونرى منظر آخر فيه راهبات الدير يدعون دعوات حارة صادرة من أعماق قلوبهن مصليات ضارعات إلى الله أن يمن على سيرسية بالشفاء العاجل من تلك الصدمة القاتلة ونرى طبيين في حجرة (سيرسية) المريضة يتامسان فيها مقررين عجزمها عن شفاؤها وأسهما من أنها ضا من كبوتها ولكن أحدهما يقترح على زميله أن يسلكا معها سبيل الإيحاء وان ينميا فيها هذا الاعتقاد المتأصل في نفسها . وثم قال لصاحبه « مادامت بنوهم أنها قادرة على المشي فماذا علينا إذا جاريناها في اعتقادها وأدخلنا في روعها أنها شفيت وأنها تستطيع السير الآن ، لعل ذلك يكون من أسباب شفاؤها ، وان كان الامل في نجاحنا ضعيفا ، ولكن لتكن هذه هي التجربة النهائية » و ثم يقولان لها وهاء أنت ذى قدرة على المشي فانهض أيتها الفتاة « وتحاول الفتاة تلبية هذا الطلب فتشرع في النهوض مع ما تكبدها تلك المحاولة المتعبة من الجهد وتنهض متاثلة معتمدة ذراعي الطبيين حتى لا تسقط إلى الارض فاذا تركا ذراعيها القياها لا تماسك يدها تعصم بالجلد محاولة أن تغالب ضعفها وتأتي قدمها الخائرتان أن تحتملها فتترنخ ترنخ من يوشك أن يهوى ساقطا الى الارض وانها كذلك إذ يدخل حبیبها الطبيب فلا يكاد يقع بصره عليها حتى يناديها باسمها ، هذه هي أنت يا سيرسية »

أى صوت ملكى تسمعه أذناها وأى حلم جميل تراه في يقظتها فلا تكاد تصدق أنه حقيقة واقعة فتنظر إلى حبیبها مشدوهة وهى مرهفة أذنها مستجمعة حواسها الضعيفة وقواها الخائرة فتسمع صوته الساحر يناديها ثانية « هلى إلى يا سيرسية هلى إلى ! » فلا يتم هذه الجملة

العذبة الخلابة حتى يتبدد كل شك في نفسها وتوقن أنها يقظة غير حاملة، وتنتظر فتجده.
فأتاحت ذراعيه إليها فتمد يديها إليه، وكأنا نسيت ضعفها وبأس الأطباء من شفائها
وعجزها منذ لحظة عن الوقوف على قدميها فضلاعن السير، وكأنا أنساها الظفر كل
شئ. إلا ما تحلم به من ادراك السعادة الوشيكة بقرب حبيبها الذي قطعت الأمل من
لقائه فتستمسك في الحال وتتحرك قدماها نحو حبيبها تحركا وئيدا، وتخطو إليه خطوتين
فأذارت ذراعيه تستقبلانها ارتمت في أحضانه، وتنطبع على شفاهها قبلة فيها كل معاني
البحث والجوى: وتمر بهما لحظة تتضاءل أمامها كل لذات الحياة ومسراتها، وتريدا
(سيرسيه) أن تستيقن مثبتة من أنها في اليقظة فيشتد التصاقها به وتسأله:
«أأنت حاملة؟» أحقا أنتي ظفرت بالسعادة بقربك فيضمها حبيبها إلى صدره ضمة الموله
المشغوف وهو يقول: «كأأنت حاملة بل أنت بين ذراعي وستكونين لي وحدي مدى الحياة»!

«ك. ك.» «تمت»

اطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المسكاتب المعروفة

مَعْصِيَةُ الْمَلِكِ نَيْلِ الْحَيَاةِ

ومفالات أخرى

بقلم

اسماعيل مظهر